

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

Naif Arab University For Security Sciences

حقوق التأليف في التراث العربي

د. عبدالرحيم يحيى حاج عبدالله

٢٠٠٤م

حقوق التأليف في التراث العربي

د . عبد الرحيم يحيى حاج عبد الله(*)

(*) مركز الدراسات والبحوث بجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

مقدمـــة

إن تناول قضية حقوق الملكية الفكرية من منظور التراث العربي، يمثل سانحة رحبة يغدق علينا بثمار جهود متميزة متتالية متلاحقة تفاعلت مع مباديء ديننا وأطره واتسمت بالتجارب الرائدة والأساليب الزاخرة التي تثير الاعجاب وتسعفنا بالعديد من الصور المشرقة والنماذج الرائعة التي تسدد أحوالنا الثقافية وشؤوننا الفكرية، وفي الوجه الآخر نجد في التراث ـ وهو بطبيعته حصيلة اجتهادات وممارسات بشرية يخضع للخطأ أو الصواب ـ تتجسد فيه سمات التقليد والهوى والركود والجمود، بل وانحرافات عن القيم الإسلامية حينها يصبح البناء على هذا التراث وتمثله نوعاً من النكوص الحضاري واجترار الأخطاء الشنيعة في مسارنا الحضاري والعلمي.

لذا فإن الاعتماد على التراث يتيح لنا إطلالة واسعة على تلك التجارب المتصلة بحقوق التأليف والتواصل مع المسيرة التاريخية الطويلة عبر التأليف وترسيخ أصوله في الحضارة العربية الإسلامية.

ويمثل التراث الهوية الثقافية الحضارية للأمة ولعل المقصود به ا لتراث بمفهومه الشامل هو مجموعة عطاءات الآباء والأجداد على المستوى الروحي والمادي عبر تفاعل متصل مع الدين وضمن خضوع لقيود الزمان والمكان اللذين انجزت فيهما ثمار التراث وابداعاته.

وقد رأى كثير من الباحثين وهم محقون في ذلك عدم عد الوحي (الكتاب والسنة) من التراث ذلك أن الوحي من القطعيات التي يتمثلها المسلم بخلاف التراث الذي يؤخذ منه ويرد.

ولعل مما يسوغ طرح قضية حقوق الملكية الفكرية في سياق التراث وقراءتها من منظوره اعتبارات عديدة من أهمها:

أولاً: في التراث العربي الاسلامي تجارب غنية نافعة وأساليب علمية رائدة ونماذج أدبية تثير الأعجاب في براعة تناول القدماء هذه القضية مما يصلح في شكله ومضمونه إعادة قراءته وتمثله والحرص أيضاً على أساليب تطبيقه وتوظيفه.

ثانياً: في التراث صور مشرقة للعطاء الفكري والثقافي والحضاري الذي ظل خصباً وثرياً فلم يخض عبر توهجه الماضي أي تبادل غير متكافيء مع الثقافات الأخرى، لذا كانت له منعته وخصوصيته وحماية نفسه وقدرته على بث الفكر والقيم والثقافة للعالم من حوله دونما ضعف أو ذوبان يصنعه كما هو الحال اليوم في مصاف المنتوجات الوطنية الجديرة بالحماية والرعاية.

ثالثاً: في التراث الإسلامي مباحث عديدة عن قضية الملكية الفكرية إذ أثيرت حولها قضايا نقدية ومعارك أدبية ناصرت الابداع والابتكار وحطت من الاتباع والتقليد ناهيك عن السرقات والاعتداءات.

رابعاً: شاعت في التراث أجواء فكرية ونقدية نشطة لم تمكن لصوص الفكر أن يأمنوا من النقد البصير الخبير، ومن سهام الادانة والتشهير أويجدوا مجالاً فسيحاً مواتياً للسطو على الأفكار والمؤلفات دونما رادع أو رقيب.

خامساً: في التراث نقف على تقاليد العلماء في البحث العلمي ومناهجه التي رعت حركة التأليف في التراث العربي والإسلامي وسددتها ودعمتها بقواعد خالدة وأصول رائدة.

سادساً: كان التزام علماء المسلمين أرباب التأليف بالعقيدة الإسلامية وقيمها ومثلها سبباً مباشراً للالتزام في مناهجهم العلمية بالصدق والأمانة وسائر القيم المنهجية القويمة.

سابعاً : في التراث مقولات نقدية مبكرة وشذرات من قضايا نظرية جوهرية تعتبر من الأسس المنهجية الأولى في مجال الموازنات بين الشعراء وتقويم الاعمال الابداعية والعلمية والأدبية مما أدى إلى صقل الملكات ومعالجة القضايا العلمية بكثير من التأصيل والتفصيل .

وقد تناول البحث دراسة الموضوعات التالية : التأليف في التراث ، الاعتداء على المصنفات ، السرقات الشعرية ، وسائل الحماية الفكرية ، الخاتمة والتوصيات .

أرجو أن أكون وفقت إلى استجلاء بعض المعاني والموضوعات المبثوثة في رحاب هذا التراث العظيم ومصاحبتها في مظانها المختلفة ومصادرها الأصيلة لإثراء هذه القضية الفكرية المطروحة .

والله من وراء القصد ، ، ،

٢ . التـأليف في التـراث

٢ . ١ التـراث

لغة : ما يخلفه الرجل لورثته ، وأصله ورْث أو وراثُ ، فأبدلت الواو تاءً ، فالتراث والإرثُ مترادفان . هكذا قالَ ابن الأعَرابي ومن بعده ابن سيده ، وقيل : الورْثُ والميراث في المال ، والإرثُ في الحَسَب[١] . مما يشير إلى الميراث المعَنوي والثقافي ؛ ولعل مفاخر الآباء وشرف الفِعال التي يرثها الأبناء ويتغنون بها من الميراث .

قال تعالى : ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا** ﴿١٩﴾ ﴾(سورة الفجر) أي : تأكلون الميراث أكلا شديدا لا تسألون أَمِنْ حلال هو أم من حرام ؟! و جاء في الحديث (ولك ربِّ تراثي)[٢] .

فإن كلمة « التراث « تعني الميراث ، (المال والأحساب) ، وقد ورد في القرآن للدلالة على الميراث الديني والثقافي ، قال تعالى : ﴿ **يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ... ﴿٦﴾ ﴾ (سورة مريم) (فإنه يعني وراثة النبوةَ والعلَم وَالفضيلة دون المال ، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه . . .)[٣] .

ويُذكر إن أول من أطلق (الميراث) على التراث الديني والثقافي الصحابيُّ أبو هريرة رضي الله عنه حيث خاطب الصحابة رضي الله عنهم بقوله : (أنتم هنا وميراث محمد ﷺ يوزع في المسجد !! . . .) فلما انطلقوا إلى المسجد اندهشوا إذ لم يجدوا سوى حَلَق الذكر وتلاوة القرآن . فأوضح لهم أبو هريرة رضي الله عنه أن هذا هو ميراث محمد ﷺ[٤] .

(١) ابن منظور ، لسان العرب مادة «ورث»
(٢) الترمذي ، سنن ، كتاب الدعوات ٨٧
(٣) الراغب الاصبهاني : المفردات في غريب القرآن ٥١٩
(٤) الهيثمي ، مجمع الزوائد ١/ ١٢٣

٢ . ٢ التأليف

أما التأليف فقد تناوله علماء البيان تناولاً شافياً فصلوا في معيار حسنه، أو رداءته يقول الآمدي : (وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف، ورداءة اللفظ، يذهب بطلاوة المعنى الدقيق، ويفسده، ويعميه حتى يموج مستمعة إلى طول تأمل، وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره . وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً، وحسناً ورونقاً حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد[1] . وذكر العسكري أن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سَبَيّاً، ورصف الكلام رديًّا لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة وإذا كان المعنى وسطاً ورصف جيداً، كان أحسن موقعاً، وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى، وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً، وإن اختلّ نظمه فضمّت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً)[2] .

وقال ابن الأثير : (حسن التأليف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتجعل في أماكنها)[3] .

ومعظم كلام البلغاء متصف بذلك وخلافه هو سوء التأليف .

وإذ شرف الله الكتابة والقلم في كتابه الكريم، فإن هذا التشريف ينصرف إلى ذوي الكتابة والتأليف الذين يبدعون ويتمسكون بتقاليدها وأصولها ويطبقون آدابها وأخلاقياتها .

---

(١) الامدي، الموازنة ج١ ص ٢٠٤
(٢) العسكري، الصناعتين ص ١٦١
(٣) ابن الاثير ، الجامع الكبير ص ٦٥

قال الشاعر :

كُنْ للعلوم مُصَنِّفاً أو جامعاً　　يبقى لك الذكرُ الجميلُ مُخَلَّدا
كم من أديبٍ ذِكْرُهُ بين الورى　　غَضٌّ وقد أودى به صَرْفُ الرَّدى
وأرى الأديبَ يهابُهُ أعداؤهُ　　ويَعُدُّهُ الساداتُ فيهم سيِّدا
ينسى أواخِرَنا الأوائلُ كُلُّهم　　إلا أخا العلم الذي جاوز المدى

ولعل أبا جعفر الفضل خير من أماط اللثام عن فضل الكتابة وقيمة التأليف فقال : ((الكتابة ـ أعز الله ـ نسب وقرابة ، ورَحِمُ ماسَّة ووسيلة . وهي أس الملك ، وعماد المملكة ، وأغصان متفرعة من شجرة واحدة . وهي قُطْبُ الأدب ، وفَلَك الحكمة ، ولسان ناطق ، وهي نور العلم ، وتذكية العقول ، وميدان الفضل والعدل ، وهي زينة وحلية ، ولَبُوس وجمال وهيئة ، وبها وُسِمَت التوراة والإنجيل والقرآن والكتب المنزلة . ولو أن فضلاً ونبلاً تصوَّرا جسماً لتصورت الكتابة ، ولو أن الصناعة مربوبة لكانت الكتابة سيداً لكل صناعة . وبالكتابة تُوضَع الموازين ، وتُنْشَر الصحف يوم القيامة . والكتابة أفضل شئ عند الله منزلة ودرجة ، ومن جهل حقها رُسِم برسم الغُوَاة والجهلة . وبها قامت السياسة والرياسة)) .

وأشار أبودلف العجلي إلى خطورة الكلمة وقيمة الكاتب بقوله :

قوم إذا خافوا عداوة حاسد　　سفكوا الدما بأسنة الأقلام
ولضربةٌ من كاتب بمداده　　أمضى وأنفذ من غرار حسام

ويقول الثعالبي في هذا ((معاداة الكتّاب ، ليست من أفعال ذوي الألباب ، وإن مماراتهم ندامة ، ومسالمتهم سلامة ، ومصادقتهم فائدة ، وغنيمة باردة ، وما ظنك بقوم يملكون أزمة المنى والمنايا بحسن كلامهم ،

ويخطبون على منابر الفضل بألسنة أقلامهم ويريقون دماء الأعداء بأسنة أقلامهم وقديما أغنت كتبهم عن الكتائب، ونابت آثار أيديهم عن القواضب، وأجري على أناملهم جسام المنائح والمواهب، ففي سواد مداهم بياض النعم، وحمرة الدم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال عبدالله بن المعتز (علم الإنسان ولده المخلد).

وقال أبو الفتح علي بن محمد البستي:

يقولون ذكرُ المرءِ يبقى بنسله ... وليس له ذكرٌ إذا لم يكن نَسْلُ

فقلت لهم: نسلي بدائعُ حكمتي ... فَمَنْ سَرَّهُ نسلٌ فإنَّا بذا نَسْلُو

ولما كان التراث الإسلامي يتمثل في المكتبة العربية التي نشأت من حركة التأليف في فجر التاريخ الإسلامي .. من حركة التدوين في القرن الأول ثم التصنيف والتأليف في القرن الثاني وازدهارها في القرنين الثالث والرابع، وما اتسمت به لغة التأليف من قوة، ورصانة، وثراء لغوي، وذوق أدبي رفيع، فإن هذه الدراسة تأخذ بهذا الطابع التراثي الأدبي فتنتقل بين مناهج العلماء والأدباء والشعراء حول التأليف والنظم والإبداع وما صاحب هذه حركة التأليف من نظرات فاحصة أسست لقيم منهجية رائدة رائعة، وما اعترى هذا التراث أيضاً من بعض جوانبه من ضعف وتقليد وسرقات، ثم الوقوف على وسائل رعاية البحث العلمي في التراث في سبيل تسديد مساره والبعد من أسباب الضعف والقصور فيه، وما اعتراه من تجاوزات واعتداءات.

٢ . ٣ نقل العلوم

وفي مجال نقل العلوم والمعارف الإنسانية تتلمذ العرب والمسلمون على اليونان والهنود والفرس و . . . اغتذوا من لبانهم ثم لم يلبثوا أن تجاوزوهم وحلَّقوا في عوالم جديدة . فمن الترجمة انتقل علماء العرب إلى الإنتاج العلمي الأصيل من أبرزه مؤلفات فيلسوف العرب أبي يوسف يعقوب بن اسحق الكندي الذي ينسب إليه اكثر من ٢٦٥ كتاباً في الفيزياء والطقس والكثافة والمد والبصريات وانكسار الضوء . . . وإذا كانت معظم أبحاث الكندي قد ضاعت، فقد بقيت بصرياته في ترجمة لاتينية كان لها أثرها في أعمال روجر بيكون وغيره من العلماء في الغرب . وما ينطبق على الكندي ينطبق على الفارابي والرازي وابن سينا وابن الهيثم والبيروني وابن خلدون . . . لأن الحضارات لا تقوم ولا تدوم على شخص واحد فرد، مهما بلغ من العبقرية، بل مجموعات من المواهب والكفاءات والطاقات تكفل لها الحياة والاستمرار، وأجيال من العلماء والفلاسفة والمفكرين يضمنون لها النمو والبقاء .

لقد انتقل العرب من طور النقل إلى طور الإبداع بسرعة مذهلة . فانهم ما كادوا يتدارسون الكتب المنقولة إلى لغتهم حتى سعوا إلى تحقيق مسائلها وشرحها وتلخيصها ومناقشتها والزيادة عليها . فألَّفوا وابتكروا واكتشفوا حتى فاقوا أساتذتهم اليونان وصححوا لهم كثيراً من الأخطاء وأكملوا لهم كثيراً من الأبحاث المبتورة . وقد ظهرت جهود العرب الإبتكارية في الطب والكيمياء والفلك والطبيعة والرياضة والتاريخ والاجتماع والفلسفة .

صحيح أن العرب قد أتى عليهم حين من الدهر كان التاريخ فيه طوع بنانهم وكان صوتهم هو الصوت الوحيد الذي يجلجل في الآفاق، وقد بلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً، ولا ينكر ذلك إلا مكابر .

٢ . ٤ الإبـداع والتراث

فقد أكد العلماء على أهمية الابتكار واشترط ابن رشد في مقدمته[١] في العالم خمسة شروط هي « الذهن الثاقب والشهوة الباغته، والعمر الطويل، والخبرة والأستاذية » وهي شروط لا يتوفر الإبداع للعالم بدونها .

وتحدث ابن رشيق عن الاختراع والإبداع وفرق بينهما فقال : (الاختراع هو خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن فيها قط، أما الإبداع فهو الإتيان بالمعنى المستطرف والذي تجري العادة بمثله ثم صار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ، فإذا أتم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد وحاز قصب السبق)[٢] .

وقد احتفى العرب بالشاعر، وكانت له منزلة كبيرة في قومه تحتفي به قبيلته إذا صار نابغة وتقيم الأفراح ويأتي إليها المهنئون .

٣ . الاعتـداء على المصنـفات

٣ . ١ ظاهرة السرقات

وإذا كانت ظاهرة السطو على مؤلفات الآخرين في هذا الزمن تشكل أزمة ماثلة، شائعة ومتكررة، ومثارة في الدوريات والمؤتمرات العلميـة والثقافية . . . وهي مثار قلق شديد تستدعي استصدار التشريعات إثر التشريعات للحد منها . . حماية للحقوق .

(١) انظر ابن رشد، المقدمة ج١ ص ٣١٠
(٢) ابن رشيق، العمدة ج١ ص ٢٣٢

ففي التراث العربي عدة حوادث من هذا القبيل أستعرض صوراً منها ، علَّها تؤمي إلى بذور تلك الاعتداءات ونشوئها وتسهم في الوقوف على أساليب الكشف من هذه الظاهرة ودراستها واستعراض المناهج العلمية والطرق النقدية التي أتبعت فيها للحماية .

ولاشك أن طرح هذه القضية في وقت مبكر وإثارة الجدل حولها تدل في حد ذاتها على تلك السليقة العربية الفذة التي استخدمت ملكة النظر والنقد والموازنة مما مهد إلى مسلك علمي واضح القسمات بارز السمات .

ثم إن الثقافة السائدة آنئذ في المجتمع الإسلامي المتمثلة في الالتزام بقيم الأمانة والصدق والنزاهة بل الورع المشع في محاريب العلم وحلقات الدرس والذكر .

كانت تلك كلها كفيلة بعدم تفاقم الظاهرة والتنويه إليها ومعالجتها .

وفي قراءة هذه النماذج من السرقات والرؤية النقدية حولها وخاصة لدى العلامة جلال الدين السيوطي ، متعة أدبية رائعة وقيمة تراثية عظيمة تنم عن التحليل النقدي القويم للنصوص والأعمال ، وتقديم بحثٍ وافٍ حول الرجال بمعايير الجرح والتعديل .

وتكاد تمثل ظاهرة السطو أحياناً هاجساً لا يفارق العلماء فينبهون إليها مراراً في مستهل تصنيفاتهم فها هو العلامة علي بن سهل الطبري صاحب فردوس الحكمة يطيل في التعريف بكتابه وبنفسه وبجهوده في الجمع والاستنباط والتأليف ، فيقول في صدر الكتاب (أردت بذلك أيضاً التحرز من قوم من أهل سوء الطريقة ، بلغني أن الرجل منهم ينتحل كتاب غيره ويتخلق بذلك بأهجن الأخلاق وأدناها فان من فعل ذلك استحق من الله المقة واللعنة ، ومن الناس السب والبغضة ، وكان كالكلب الذي يأتي فريسة

الأسد فيفرح بما يجد من فضالته وسوره ويمرح به)[1] ويضطر علي بن العباس بكثير من القلق أن يؤكد أن كتابه عن « الطب « من تصنيفه هو، وليس من تصنيف غيره فيقول (وأما صحته فإنه لعلي بن العباس والذي يدل عليه أمران، أحدهما انه لم يسبقه أحد إلى تصنيف مثل تصنيفه وذلك انك إذا قسته إلى سائر الكنائش والكتب التي وضعها من كان قبله لم تجد لأحد منهم كتاباً لجميع أجزاء صناعة الطب ولا ترتيبا يشبه هذا الترتيب، والثاني أن هذا الكتاب أول ما أخرجه مصنفه إنما أخرجه إلى خزانه الملك عضد الدولة ثم إلى أيدي الناس وأظهره لهم فأما قبل ذلك فلم يكن له نسخة ولا شبيه في التأليف . فإذا كان الأمر كذلك فقد صح أن واضعه علي بن العباس تلميذ أبي ماهر موسى بن يسار، وإنما احتاجت العلماء إلى صحة نسبة هذا الكتاب لئلا يجد بعض من لا علم له كتاباً قد ألفه بعض الحكماء فيدعيه وينسبه إلى نفسه)[2].

٣ . ٢ نماذج من السرقات

يتهم ياقوت الرومي أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور بالسرقة فيقول (كان مؤدب كتاب عاميا ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي . ولم أر ممن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفا منه ولا أبلد علماً ولا ألحن . . . وكان أسرق الناس لنصف بيت وثلث . . . وكان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة).

---

(١) الطبري ، علي بن سهل، فردوس الحكمة ١٩٢٨ ، برلين ص ٨
(٢) علي بن العباس، الكامل ج١ ص١٢

وقد وجد أيضا في التراث ظاهرة الإغراء بالأموال لنسبة التأليف إلى الحكام وذوي الجاه، فقد قيل أن الملك الأشرف الرسولي باليمن (ت ٨٠٣ هـ) كان مغرماً بنسبة الكتب إليه فربما أمر جماعة من العلماء أن يؤلفوا كتباً باسمه فيما يقول السخاوي في الضوء اللامع . كما يقال أن الملك الأفضل (ت ٧٧٨هـ) كانت أكثر الكتب المنسوبة إليه من وضع القاضي رضى الدين أبو بكر ابن محمد النزاري الصبرى .

ولعل هذه الظاهرة هي التي دفعت بالعلامة ياقوت الرومي أن يصرح فيقول :

(وإعلم لو أني أعطيت حمر النعم وسودها ومقانب الملوك وبنودها لما سرَّني أن ينسب هذا الكتاب إلى سواي، وأن يفوز بقصب السبق إلاَّى، لما قاسيت في تحصيله من المشقة، وطويت في تكميله الشقة) ولما طلب من أبي غالب الأندلسي أن يجعل كتابه باسم الحاكم لقاء ألف دينار قال قولته الشهيرة (كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتي، أجعل في صدره اسم غيري ؟! وأصرف الفخر له !، لا أفعل ذلك) .

وقديما قال الشاعر :

من البلوى التي ليس لها في الناس كنه
إن من يعرف شيئاً يدعى أكثر منه

وقد ذكر الزيات في سياق البلايا التي لحقت بالأدب والإبداع (التطفل) ويقصد به تطفل فئة من أرباب المناصب لا يقدح في كفايتهم إلا أن يكونوا كتابا أو شعراء ولكنهم يأبون إلا أن يضموا المجد من جميع حواشيه فيتكلفون ما ليس في طباعهم من صناعة البيان فيقعون في النقص وهم

يريدون الكمال . . . فإن إصرارهم علي أن يعدوا في كبار الكتاب على ما فيهم من تخلف الطبع وخمود القريحة وضعف الأداة .

وظاهرة السرقة أشاعت الكثير من الهواجس لدى العلماء فها هو المسعودي يبدي تخوفاً شديداً من السطو على كتابه (مروج الذهب) ويخوف من يسول له نفسه بالعبث بكتابه، والإغارة عليه، هذا في أول الكتاب وآخره فيقول (فمن حرفً شيئاً من معناه، أو أزال ركنا من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه، أو لبَّسَ شاهدة من تراجمه، أو غيره، أو بَدَّله، أو أشانه، أو اختصره، أو نسبه إلى غيرنا، أو أضافه إلى سوانا، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره، ويحار له فكره، وجعله الله مُثْلَةً للعالمين وعبرة للمعتبرين، وآية للمُتَوسِّمين، وسلبه الله ما أعطاه، وحال بينه وبين ما أنعم عليه : من قوة ونعمة مُبدعُ السموات والأرض، من أي الملل كان والآراء، إنه على كلً شئ قديرٌ . وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره، ليكون رادعا لمن ميَّلَه هوى، أو غلبه شقاء، فليراقب الله ربه، وليحاذر مُنْقلَبهُ، فالمدة يسيرة، والمسافة قصيرة، والى الله المصير)[1] .

و يهول الحريري في مقاماته من السرقات تهويلاً شنيعاً فيصبغ القضية بطابع فني قصصي رائع، فيفضح السارق (الغلام) فيقول :

قال لَهُ الشَّيْخُ : أعزَّ اللهُ الوالِي، وجعَلَ كَعْبَهُ العالي، إنِّي كَفَلْتُ هَذَا الْغُلاَمَ فَطِيماً، وربِّيْتُهُ يتيماً ؛ ثمَّ لَمْ آلُه تعليماً . فَلَمَّا مَهرَ وبَهرَ، جرَّدَ سَيْفَ الْعُدْوَانِ وَشَهرَ، وَلَمْ أَخَلْهُ يَلتَوِي عَلَيَّ ويتّقِح، حِينَ يَرْتَوِي مِنِّي وَيَلْتَقِحُ .

(١) المسعودي، مروج الذهب ص ١٨

فقال له الفَتَى : عَلاَمَ عثَرْتَ مِنِّي ؛ حتى تنشرَ هذا الخزْيَ عَنِّي ، فوالله ما سَتَرْتُ وَجْهَ بِرِّكَ ، وَلا هَتَكْتُ حِجَابَ سِتْرِكَ ، وَلا شَقَقْتُ عَصاَ أمْرِك ، وَلا أَلْغَيْتُ تِلاَوَةَ شُكْرِكَ .

فقالَ له الشيخُ : وَيْلَكَ وأيُّ رَيْب أَخزَى مِنْ رَيْبِكَ ، وهَلْ عَيْبُ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ ، وقد ادَّعَيْتَ سِحْري واستلْحقتَهُ ، وانتَحَلْتَ شعْري واسْترَقْتَهُ ، واستراَقُ الشِّعر عَند الشعراء ، أفظعُ من سَرِقة البيضاء والصَّفْراء ، وَغَيْرَتُهُمْ عَلَى بنات الأفكَار ، كغيرتهمْ على البناتَ الأَبكار . فقال الوالي للشَّيخ : وهْلَ حِينَ سَرَقَ سَلَخ ، أم مَسَخ أم نسخ ![1] .

ولهذه المفردات مدلولاتها في السرقات الشعرية .

ومن وقائع السرقات أن ابن نفطويه وأخرين اتهموا ابن دريد أبا بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ) صاحب جمهزة اللغة بأنه قد غير في (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وبدل فهجاه نفطويه متهما إياه قائلاً :

ابـــن دريــد بقــره وفيـــه عـــي وشـــره
ويـدعي مـن حمقـه وضـع كتـاب الجمهـره
وهــو كتاب العـين إلا أنــه قـــد غيّـــره

ورد ابن دريد الهجاء بمثله - بمسحه من الدعابة - ولكنه لم يردَّ على تهمة السرقة التي نسبت إليه

لو تنزل الوحي على نفطويه لكان ذلك الوحي سخطاً عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه مستأهل للصفع على أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخاً عليه

(١) الشرتشي ، شرح مقامات الحريري ص ٧٩

وممن أتهم بالسرقة أيضاً أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، فقد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد فقال (حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن القاسم بن طباطبا العلوي قال سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختي يقول : كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها)[1]. ولم يسلم الخطيب البغدادي المؤرخ والمحدث الشهير نفسه من هذه التهمة التي أيدها ابن الجوزي في كتابه (المنتظم) وياقوت الحموي في (الإرشاد) ، جاء في الإرشاد (أكثر كتب الخطيب سوى التاريخ مستفاد من كتب الصوري، كان الصوري بدأ بها ولم يتممها، وكانت للصوري أخت بصور فمات وخلف عندها إثنى عشر عدلاً مخروماً من الكتب . فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف بها كتبه)[2].

ويتحدث ياقوت الحموي عن كتاب (فيما ائتلف واختلف من أسماء البلدان) وأنه قرأه لأبي بكر محمد الحازمي ثم وقف على مختصر لأبي الفتح الأسكندراني النحوي فيقول عنه : فوجدته تأليف رجل ضابط قد انفد في تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثرًا، ووجدت الحازمي « رحمه الله» قد اختلسه وادعاه، واستجهل الرواة فرواه، ولقد كنت عند وقوفي على كتابه أرفع قدره من علمه وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه، إلى أن كشف الله عن خبيته، وتمحض المحض عن زبدته فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر، فقد نسبته إليه وأحلته عليه، ولم أضع نَصَبه، ولا أحملت ذكره وتعبه . والله يثيبه ويرحمه .

(١)الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣١ ج١١ ص ٣٩٩
(٢) ياقوت الحموي، معجم الادباء ١٩٣٨ ج٨ ص٢٦٦

ومن أكثر المصنفات المتهمة بالسرقة، مصنفات يحيى بن أبي طي، فقد قال عنه ابن حجر العسقلاني: (وله تصانيف، وأخذ عن غيره، ثم ترك صناعته، ولزم تعليم الأطفال في سنة سبع وتسعين إلى ما بعد الست مائة، وتشاغل بالتصنيف؛ فاتخذ رزقه منه). وقال عنه ياقوت: كان يدعي العلم بالأدب والفقه والأصول على مذهب الإمامية، وجعل التأليف حانوته، ومنه قوته ومكسبه، ولكنه كان يقطع الطريق على تصانيف الناس بأخذ الكتاب الذي أتعب جامعه خاطره فيه؛ فينسخه كما هو؛ إلا أنه يقدم فيه ويؤخر، ويزيد وينقص، ويخترع له اسماً غريباً، ويكتبه كتابة فائقة لمن يشبه عليه ورزق من ذلك حظّاً، وادعى من تصانيفه (معادن الذهب في تاريخ حلب) و (شرح نهج البلاغة) في ست مجلدات، و (فضائل الأئمة) في أربع مجلدات، و (خلاصة الخلاص في آداب الخواص) في عشر مجلدات، و(الحاوي في رجال الإمامية) . . . إلى غير ذلك)[1].

وقد أفرد السخاوي فصلاً لمن اشتهروا بالسطو على مؤلفات غيرهم ونسبتها إليهم سماه:

(فمن أخذ تصنيف غيره فادعاه لنفسه وزاد فيه قليلاً ونقص منه)

يقول السخاوي: البحر للروياني أخذه من الحاوي للماوردي، الأحكام السلطانية لأبي يعلي أخذها من كتاب الماوردي ولكن بناها على مذهب أحمد. ونلاحظ أن السخاوي وقف على ظاهرة عجيبة هي في غاية الخطورة من العبث والخلط وانعدام المسئولية والأمانة العلمية يوضح لنا أبعادها في كشفه عن منهج تأليفي مضطرب لعلي ابن زكنون (ت ٨٣٧ هـ) في كتابه (الكواكب الدراري) إذ يقول: (أنه إذا جاء لحديث الإفك

---

(١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، لسان الميزان، بيروت، دار الفكر ١٤٠٨هـ ج٦ ص ٢٦٣ - ٢٦٤

مثلاً يأخذ نسخة من شرحه للقاضي عياض فيضعها بتمامها وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم أو شيخه ابن تيميه أو غيرهما وضعه بتمامه ويستوفي ذاك الباب من المغني لابن قدامه ونحوه)[1] .

ويتهم المرزياتي محمد بن حبيب بالسرقة، فيقول : (. . . كان يغير على كتب الناس، فيدعيها، ويسقط أسماءهم، فمن ذلك الكتاب الذي ألفه إسماعيل بن (أبي) عبيد الله، واسم أبي عبيد الله معاوية وكنيته هي الغالبة على اسمه، فلم يذكرها لئلا يعرف، و ابتدأ فساق كتاب الرجل من أوله إلى آخره ولم يغير فيه حرفاً ولا زاد فيه) .

٣ . ٣ مع كتاب (الفارق بين المصنف والسارق)

تعد هذه الرسالة « الفارق بين المصنف والسارق (للعلامة جلال الدين السيوطي «ت ٩١١هـ»)« أبرز رسالة في التراث العربي تتناول قضية « الأمانة العلمية » بل قضية « الحماية الفكرية» بهذا البعد الشامل الذي يناول « السطو» كله فيتعقب السارق تعقباً شديداً لردعه، وتخويفه وتهديده أو لنصحه حباً في إصلاحه .

كما تتناول هذه الرسالة العمل العلمي وتدعو إلى دراسته دراسة فاحصة، فيذكر السيوطي في هذا أن « أهل البصر « بهذا المصطلح يسميهم، ولا شك أنه يقصد أرباب الملكات النقدية الذين هم أولى بالتصدي إلى النظر في الأعمال العلمية والحكم عليها بالجودة أو الرداءة أو بالأصالة والتقليد .

فقد كان السيوطي ذا باع طويل في بحث السرقات فقد ألف هذا العمل الخاص بالتأليف وما يتعرض له من السرقات وسماه (الفارق بين المصنِّف

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ٥/ ٢١٤

والسارق) استهله بالقول ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ ، هل أتاك حديث الطارق ، وما أدراك ما الطارق : الخائن السارق والابن المارق الذي أوسعناه براً فقابله بجفاء ، وعاملنا بغدر إذ عاملناه بوفاء ، وتطفل علينا في الموائد ، فأنعمنا له بشيء مما إلينا من الفوائد ، فما كان من هذا العديم الذوق إلا أنه نبذ الأمانة وراء ظهره وخان ، وجنى ثمار غروسنا وهو فيما اجتناه جان ؛ افتض أبكار عرائسنا اللائي لم يطمثهن في هذا العصر إنس قبلنا ولا جان ، . . . وأغار على عدة كتب لنا أقمنا في جمعها سنين ، وتتبعنا فيها الأصول القديمة وعمد إلى كتابي (المعجزات والخصائص الطويل والمختصر) فسرق جميع ما فيها بعباراتي التي يعرفها أولو البصر وزاد على السرقة فنسبها إلى نفسه ظلما وعدوانا ، لا سمع بالحديث الوارد عن النبي ﷺ وعلى آله : (تناصحوا في العلم فان خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله) ولا بالأثر الوارد ـ رضي الله عن ناقله ـ (بركة العلم عزوه إلى قائله) . . .

ولا رأي صنع المزني حيث قال في أول مختصره الذي كساه الله ـ لإخلاصه ـ إجلالا ونوراً وزاده في الآفاق سمواً وظهوراً : (كتاب الطهارة) قال الشافعي : قال الله تعالى ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ .

أما كان المزني رأى هذه الآية في الصحف !! فينقلها منه بدون عزوها إلى إمامه ؟ قال العلماء : إنما صنع ذلك لأن الافتتاح بها من نظام الشافعي لا من نظامه .

ثم يسترسل السيوطي بمشاعر غضب شديد مشيراً إلى كيفية مواجهة هذه الظاهرة بين أرباب العلم لحماية حقوق التأليف فيقول : أعوذ بالله من هذا الطارق السارق وأستعين برب الفلق من شر هذا الغاسق ، فحق أن يمنع

هذا السارق من إعارته كل كتاب مصون وأن يدخر عنه أنفس الكتب في أحصن الحصون، فاحذروا معاشر المصنفين أن يغير على كتبكم إن كنتم بعزة العلم توقنون، واجتنبوا شياطين سحره أن يأكلنَّ ما قدمتم لهنَّ إلا قليلا مما تحصنون، وأرسلوا عليه من ألسنتكم سبعا شدادا، ومن أقلامكم أسنة حداداً، ومن محابركم بحارا مدادا، ومن أقوالكم جيشا عرمرما، لا يدع قلاعا ولا وهادا . وأولوا هذا السارق قطعاً، وأمنعوا عنه الكتب منعا، والمبطل فاقرعوا، والخائن فاردعوا والسارق فاقطعوا، واهدموا بنيانه من أصله، وردوا كل شئ إلى أهله، وقولوا جزاؤه من وجد في رحله، وإن انتصر له خليل وحبيب فقولوا : أنت عن هذا بمعزل وإن كنت عندنا في أشرف محل وأعلى منزل .

ثم إنا لا نقبل الخبر إلا ممن عرفنا صدق لسانه واستقامة شأنه وأما من جربنا عليه الكذب والقول المضطرب والخروج عن أسلوب الصادقين إلى أسلوب المدَّعين الدعاوى الكذب والسارقين فانه عندنا محكوم له بالجرح وقوله يلقي في حد الطرح، حتى أنه يصدق فما يُصدَّق وينظر فما يُحدَّق . وكيف أُصدق من جربت عليه الكذب يقيناً ؟ وكيف أقبل من افترى بهتانا وإثما مبينا .

ويصرح السيوطي بأن سارق كتبه لم يعرفه من قبل، وبرأي العالم الفقيه يحكم عليه فيقول :

وهذا الرجل لست أعرفه في سر ولا جهر وإنما قيل لي عند السؤال - وأنا بالروضة - إنه رجل من أهل ما وراء النهر، فما أجدر هذا السارق الأعجم أن تقطع يده اليمين، ويؤخذ منه باليمين، وأن حلف على يمين، أنه لم يسرق فإنه يمين .

ونلاحظ أن السيوطي وهو يعظ ويحذر أشدّ التحذير فإنه يشير إلى وسائل مهمة للفحص وأولها المناقشة والإفحام والكشف عن السرقات حتى تتحقق حماية الحقوق الفكرية فيقول :

(أآمن أن يناقش في بعض ما نقله من كتابي فلا يحسن الخلاص ؟! أو يقال في بعض ما اتهمت نقله من أين أصل هذا ؟ فينادى حين لات مناص أو يمتحن كما كانت الفضلاء يمتحنون السارقين ويقال له : صنف لنا كتاباً في النوع الفلاني إن كنت من الصادقين .

ثم يعود السيوطي فيطالب سارق مصنفاته بالتوبة ورد الأمانة وإلاّ فإنه من زمرة الخائنين قائلاً (إن تاب هذا الرجل من الجناية قبلناه ، وإن ردّ الأمانة إلى أهلها أهلناه وإن عاد وطلب من كتبنا شيئاً على أن يراعي هذا الشرط المعتبر أنلناه وإن أصر على خيانته واستمر على جنايته نزّلناه وسفّلناه وأبقيناه على خطئه وجهّلناه وعددناه في زمرة الخائنين وكتبنا على قفـاه : ﴿ **وإن الله لا يهدي كيد الخائنين** ﴾ .

وذكر السيوطي في ثنايا رسالته قصة شاعرين اتهم أحدهما الآخر بسرقة شعره وتحاكما إلى حكمٍ امتحنهما وفحص شعرهما فحصاً دقيقاً حتى اكتشف السارق ويستخدم السيوطي هنا هذا المعيار النقدي الرصين المتمثل في قوله (فلما سمع القصيدتين وعرف النفس قضى) والنفس هنا استنباط من نسيج العمل وطبيعته والإلمام بخصائصه الفنية والإبداعية .

يقول السيوطي (وقد اشتهر في كتب الأدب قصة مهذب الدين بن الخيمي ، لما نظم قصيدة وأودعها في الخلوة وسافر ، وسكن الخلوة من بعده نجم الدين بن إسرائيل ـ شاعر آخر ـ فوجد تلك الورقة فنسب القصيدة إلى نفسه وقد جاء صاحبها من السفر فبلغه الحال فشكاه إلى أبناء جنسه

وتحاكما إلى الشيخ عمر بن الفارض في أمرهما فأمر كلا منهما أن يَنْظم قصيدة على رويها وبحرها، فلما سمع القصيدتين وعرف النفس قضى بتلك لابن الخيمي وعرف أن الثاني منه سرق واختلس، فقال له ابن إسرائيل: يكون من وضع الحافر على الحافر، فقال له ابن الفارض: وقع الحافر على الحافر يكون من الأول إلى الآخر، فكيف يتُرك هذا؟! وعزيز العلم يغير عليه وينسب ما ليس فيه يد إليه، ويوجه إلى الخيانة في كتبنا وجهه ويسير في باب الإغارة إلى كل وجهة ويسرق من ذخائر كنوزها جواهر نفائسها لا شك له فيها، ولا شبهة فلذلك هتكنا أمره، وإنا لصادقون وفضحنا خيانته وجنايته، وإنا بنصر الله لواثقون، وبعثنا في ناديه مؤذنا يؤذن: أيتها العير إنكم لسارقون.

ولم يكن السيوطي وهو بهذه الحدة والغلظة والغضب إزاء ما ناله من هذه القضية الخطيرة.. يغفل شخصية السخاوي وإن لم يورد اسمه صراحة ويتهمه بسرقة مصنفات الحافظ ابن حجر. كالخصال الموجبة للظلال، وأنه أخذ من كتب المحمودية فغير فيها يسيراً وبدل وقدم وأخر ونسبها لما كان بين الرجلين من خصومات علميه بارزة، فيوجه السخاوي في كتابه «ضوء اللامع» اتهام السيوطي بسرقة مصنفات شيخه ابن حجر.

فيؤلف السيوطي في شأنه رسالة سماها «الكاوي على تاريخ السخاوي».

وللشوكاني إزاء هذه الحملة التي استعرت بين هاتين الشخصيتين الجليلتين موقف رائع، موقف عالم رزين، فقال في مطاعن السخاوي (وعلى كل فهو غير مقبول لما عرف من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض مع ظهور أدنى منافسة، فكيف بهذه

المنافسة بين هذين الرجلين التي أمضت إلى تأليف بعضهم في بعض فإن أقل من هذا يوجب عدم القبول)[1] .

٤ . السرقات الشعرية

فطن العرب منذ عهد مبكر إلى قضايا نقدية جوهرية منها الابتكار والتقليد، وفرقوا بين الابتداع والاتباع، ووضعوا لذلك قواعد وأصولاً . ويمثل البحث النقدي للسرقات الأدبية الدراسة التطبيقية المتعمقة حول الموازنات الدقيقة بين الأعمال الأدبية والكشف عن مواطن الابتكار أو الاحتذاء فيها .

٤ . ١ مفهوم السرقة

سرق الشيء يسرقه : أخذه يخفيه، والسرقة : الأخذ بخفية .

والسرقات قديمة في الأدب العربي، وفطن النقاد والشعراء إليها قديماً في الشعر الجاهلي ولحظوا مظاهرها بين امرئ القيس، وطرفه بن العبد، وبين الأعشى، والنابغة الذبياني، وبين أوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى . وكان حسان بن ثابت يعتز بكلامه وينفي عن معانيه الأخذ والإغارة، قال :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا ... بل لا يوافق شعرهم شعري

إنها هنا سرقة أبيات وتلك سرقة بيوت .

ويبدو هناك أكثر من علاقة بين بيت الشعر وبيت الشعر ففي الدلالة

(١) الشوكاني، البدر الساطع، القاهرة ١٣٥٤ ص ٤/ ٦٦

اللغوية يضم بيت الشعر الكلام كما يضم البيت أهله . وأن علماء العروض حين جعلوا لبيت الشعر أسباباً (أي أحبالاً) وأوتاداً وفواصل (سب ، ووتد ، وفاصلة) لدى دراستهم مقاطع التفصيلات لم يبعدوا عن بيت الشعر ومكوناته .

فهم يسمون أخذ معاني الغير سرقة وسرقاً وانتهاباً وإغارة وعصباً ومسخاً ونسخاً وسلخاً إلى غير ذلك من الأوصاف التي تحط من الشعر وتشين صاحبه .

وقد نالت المعاني المبتكرة تقديراً لدى علماء البلاغة فتناولوها في مباحثهم ولعل ما يرمز إلى ذلك ذلك احتفاء باللفظ الطريف ناهيك عن الأسلوب وروعته .

وقد قال القدماء إن عبارة « قيد الأوابد » ابتكرها امرؤ القيس حتى أنها إذا ذكرت ونطقت وحدها ذكرت بصاحبها وبالبيت الذي وردت فيه :

وقد اغتدى والطير في وكناتها　　بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وقد ذكر العلماء في هذا الباب أن الرسول ﷺ هو أول من استعمل «حمى الوطيس» فليس لأي لفظة غيرها تخطي بقيمتها وجرسها ودلالتها على استعار الحرب .

٤ . ٢ ظاهرة السرقات في مرآة الشعر

أول من ذم السرقة من الشعراء طرفه بن العبد في العصر الجاهلي بقوله :

عنها غنيت وشر الناس من سرقا　　ولا أغير على الأشعار أسرقها

وقال حسان بن ثابت :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا   بل لا يوافق شعرهم شعري

هجا ابن الرومي البحتري ورماه بالسرقة من شعر القدماء :

حيٌّ يغير على الموتى فيسلبهم   حر الكلام بجيش غير ذي لجب
إذا أجاد فأوجبْ قطعَ مقولته   فقد دعا شعراء الناس بالحرب
وإن أساء فأوجب قتله قوداً   بمن أمات إذا أبقى على السلب

وقال ابن الحاجب في البحتري :

والفتى البحتري سارق ماقا   لابن أوس في المدح والتشبيب
كـل بيـت لـه يجـود معنـاه   فمعنـاه لابـن أوس حبيب

ويحذر السَّريُ الرفاء ابا الخطاب الصابي، من سارقين قدما بغداد وبضاعتهما من الشعر من الأسلاب اغتصباها من السابقين وهما الخالديان :

جلبا إليك الشعر من أوطانه   جلب التجار طرائف الأجلاب
شنَّا على الآداب أقبح غاره   جرحت قلوب محاسن الآداب
لا يسلبان أخا الثـراء انما   يتناهبـان نتائـج الألبـاب

ويقول فيهما أيضاً أنهما سرقا شعره ليمدحا به المهلبي :

ذئنين لو ظفرا بالشعر في حرم   لمزقـاه بأنيـاب وأظفـار
أرقت ماء شبابي في محاسنها   حتى ترقرق فيها ماؤها الجاري
باعا عرائس شعري بالطرق فلا   يبعد سباياه من عون وأبكار
والله ما مدحا ميتاً ولا رئيا   ميتاً ولا افتخرا إلاَّ بأشعاري

ومن أبرز الدراسات التي بحثت في السرقات الأدبية مباحث

الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في « الحيوان » وابن طباطبا (ت ٣٣٢ هـ) في «عيار الشعر» والقاضي أبي الحسن الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) في « الوساطة» والآمدي (ت ٣٧١ هـ) في « الموازنة » والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) في « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي» وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) في « الصناعتين » والثعالبي (ت ٤٢٦ هـ) في « اليتيمة » وابن رشيق (ت٤٦٣هـ) في « العمدة»، وعند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في دلائل الإعجاز، وما تلا بعد، إنما هو دوران في تلك الجهود النقدية السابقة.

٤ . ٣ أنواع السرقات

وقد قسم ابن الأثير السرقات إلى ثلاثة أقسام (النسخ والسلخ والمسخ).

فالنسخ : فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذ ذلك من نسخ الكتاب، وسمي وقع الحافر على الحافر أو توارد الخواطر، كقول امرؤ القيس :

وقوفاً بها صحبي علي مطيَّهم   يقولون لا تهلك آسى وتجمل

وكقول طرفه :

وقوفاً بها صحبي علي مطيَّهم   يقولون لا تهلك آسى وتجلد

وقسم ابن الأثير السلخ إلى إثنى عشر ضرباً، ومنه قول الشاعر :

لقد زادني حباً لنفسي أنني بعيض   إلـى كـل امرئ غير طائل

فقد أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر شبيه به فقال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

وقد عابوا قول أبي نواس في الكريم :

فماجازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

لأنه مأخوذ من قول الشنفري :

ظاعن بالحزم حتى إذا ما ملَّ حلَّ الحزم حيث يحل

وعللوا ذلك بأن الحزم يتعلق بالسير والحلول ، وأما الجود فإنه لا يصح ربطه بالسير والإقامة ، وإنما يربط بالأموال فيقال إنه جواد على حال من عسر ويسر ، ومن ثم فإن أن بيت الشنفري أجود وأسبق .

الإغارة عندهم أن يصنع الشاعر بيتاً ويخترع معن مليحاً وله من هو أعظم ذكراً فيروى له دون قائله فقد سمع الفرزدق جميلاً ينشد :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

قال له الفرزدق متى كان الملك في يبني عدره إنما هو في مصر وزعموا أن الفرزدق قال لجميل تجاف لي عنه فتجافى جميل عنه .

ويقال أن الفرزدق لما نظم بيته :

فإني أنا الموت الذي هو ذاهب بنفسك فانظر كيف أنت محاوله

حلف بالطلاق أن جريراً لا يغلبه فيه فكان جرير يتمرغ في الرمضاء ويقول أنا أبو حرزه حتى قال :

أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

وقد نظر البحتري إلى قول علي بن جبلة :

للعيد يوم من الأيام منتظر والناس في كل يوم منك في عيد

فقال فيما يشبه هذا المعنى :

كل عيد له انقضاء وكفى كل يوم من جوده في عيد

وحين سبق أبو تمام إلى قوله :

أدميت باللحظات وجنته فاقتص ناظره من القلب

أخذه ابن الرومي فقال :

جرحته العيونُ فاقتص منها بجوي في القلب دامي الندوب

ومثل ابن الأثير للمسخ بقول أبي تمام :

فتى لا يرى أن الفريضة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل

أخذه فقال أبي الطيب المتنبي :

يرى أن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة .

وقد عد من العيوب الشعرية أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاماً آخر لغيره قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود .

كقول أبي نواس :

فما زلت أرقيه وألثم خده إلى أن تغنى راضياً وبه سكر

الا فاسلمى يا دارميَّه على البلى ولازال منهلاً بجرعاتك القطر

وقد أكثر ابن بناته من استعمال هذا اللون في خطبه فقال (فيايها الغفلة المطرقون أما انتم بهذا الحديث مصدقون ، فما لكم لا تشفعون ، فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

وقوله : ((فيومئذ تغدو الخلائق على الله بهماً، فيحاسبهم على ما أحاط به علماً وتنفذ في كل عامل بعمله حكماً، وعنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من عمل ظلما[1] .

٥ . وسائل الحماية الفكرية

٥ . ١ المنهجية

يعد التأليف في الحضارة الإسلامية من المقاصد الشريفة، فكان في وجدانهم مطلباً سامياً ومبتغي، ومأمولاً، من العلماء و تلاميذهم لم يدركوه إلا بتحصيل علمي مضن، ومثابرة على التقييد والدقة والضبط، وتجشم وعثاء سفر، متواصل حرصاً منهم على التأليف الذي استجمعوا أدواته، بتلك الجهود العلمية البارزة في مصنفاتهم فكان من الطبيعي أن يفطنوا إلي التنويه بشروط التأليف وقواعده وضوابطه .

قال أبو بكر ابن العربي (لا ينبغي لحصيف أن يتصدى إلى تصنيف، إلا لغرضين، إما اختراع المعاني، أو إبداع المباني، وما سوى هذين : فتسويد للورق، وتحلية بحلية من سرق) . وذهبوا إلى (إن التأليف على سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهي :

- إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه .
- أو شيء ناقص يتممه .
- أو شيء مغلق يشرحه .
- أو شئ طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه .

(١) انظر ابن الاثير، المثل الساتر٣/ ٢٤٠

ـ أو شئ متفرق يجمعه .

ـ أو شئ مختلط يرتبه .

ـ أو شئ أخطأ فيه مصنفه ، فيصلحه)[1] .

وقد نظم الشرف إسماعيل بن إبراهيم بن السويهر شعراً ضروب التصنيف ؛ فقال :

أخـا الذكـاء والفطـن وُقيت أحداث الزمن
إن رمت أن تعرف ما صنف فيه العلما
فهاكها ثمانية من نفحة يمانية
وهي فقيد اخترع وذو افتراق جمع
وناقص قد كمل ومجمل قد فصل
ومسهب قد هذبا ومخلط قد رتبا
ومبهم قد عينا وخطأ قد بيّنا
خدمة عبد مقترف عن رسمكم لم ينحرف

ولذا كان الحرص لدى علماء المسلمين على بيان الأصول واضحاً وهذا ما بوأ الإسناد منزلة متميزة في العلوم العربية الإسلامية .

يقول الطبري (وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى راويها ، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له

(١) خليفة حاجي ، كشف الظنون ، ج١ ص ٣٥

وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي في ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا)[1].
على أنه ينبغي إيراد جهود كثيرة أمثال ابن خلدون والسخاوي من مؤرخي المسلمين. ممن عنوا بوضع معايير للنقد العلمي أعانتهم على القبول أو الرفض للأثر وأعانت سواهم من المشتغلين بالتحقيق ـ على التمحيص وعمق النظر.

يقول ابن خلدون موجهاً توجيهاً علمياً منهجياً: (فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار، وأعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه)[2].

وقد ظهرت من تلك الجهود عدة مقاييس لدى العلماء والنقاد كانت كفيلة بتنقية العلم والأدب من شوائب كثيرة أبرزها المقياس العقلي الذي رد به أبو العلاء المعري كثيراً من الروايات والأشعار.

ففي رسالة الغفران يلتقي المعري موكباً من الشعراء بعضهم في الجنة وبعضهم في جهنم؛ ويعمد إلى هذا المقياس فيرد أشعاراً نسبت إلى آدم عليه الصلاة والسلام وهي كذب صريح وافتراء على نبينا آدم، ومن المحاورة التي أجراها على لسان ابن القارح يخاطب القارح آدم فيقول « يا أبانا صلى الله عليك قد روي لنا عنك شعر منه قولك:

نحن بنو الأرض وسكّانها ... منها خلقنا وإليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه ... والنحس تمحوه ليالي السعود

(١) تاريخ الطبري، دار المعارف ١/ ٧ـ٨
(٢) ابن خلدون، المقدمة، فصل (علم التاريخ وتحقيق مذهبه)

فيقول آدم : « إنّ هذا القول حق وما نطقه إلاّ بعض الحكماء ولكنّي لم أسمع به حتى الساعة »، فيطيل ابن القارح النقاش حين يقول : « . . . فلعلّك يا أبانا قلته ثم نسيت ، فقد علمتُ أنّ النسيان متسرّع إليك وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوّة في فرقان محمد ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم فنسي ولم نجد له عزماً** ﴾، وقد زعم بعض العلماء أنك إنما سمّيت إنساناً لنسيانك . . . » .

ولذا نلاحظ وفي وقت مبكر أن كل ذي علم ينسب إليه تخصصه فقيل فلان الفقيه ، وفلان النحوي وفلان المتكلم ، قال الجاحظ : (طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبة ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه وعلى أبي عبيده لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب)[1] وقد شكك الصولي في دره على خصوم ابي تمام الذين نظروا في شعره دونما تخصص في تذوق جماليات شعره فقال (وليت شعري متى جالس هؤلاء القوم من يحسن هذا ؟! أو أخذوا عنه وسمعوا قوله أتراهم يظنون أن من فسر غريب قصيدة أو أقام إعرابها أحسن أن يختار جيدها ويعرف الوسط منها والدون فيها ويميز ألفاظها وأي أئمتهم كان يحسنه) . وإن كان البعض قد غالى في صنوف العلم والثقافة التي ينبغي أن يحيط بها المؤلف فرأى ابن الأثير أن الكاتب الأديب يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى أنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشة عند جلوة العروس وإلى ما يقوله المنادى على السلعة في السوق .

ثم إن الحكم على العمل جودة ورداءة عند نقاد العرب لابد أن يصدر من ناقد بصير صاحب ذوق وتخصص ، قال قائل لخلف الأحمر (إذا

---

(١) العمدة ، ابن رشيق ج٢ ص ١٠٠

سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك، فقال له إذا أخذت درهماً فاستحسنته فقال لك الصراف إنه رديء هل ينفعك استحسانك له)[1] .

وكان من سمات التأليف في التراث العربي التعمق في البحث والاستقصاء، يقول السيوطي (لا تقع مشكلة إلا تتبعت كلام العلماء فيها واستقصيت أمرها، حسبما أمكن حتى أعطيها حقها، وأوفيها ولا أكتفي بنقل أو تقليد)[2] .

وفي هذه الفقرة القصيرة تنجلي مصطلحات ومفردات مهمة تقوم عليها أصول الكتابة والتأليف في مضمار التخصص (الاستقصاء، والتتبع، وإعطاء الموضوع حقه، والتمام والكمال والوفاء، عدم الاعتماد على النقول).

ومن سمات هذه المنهجية الوحدة الموضوعية، فقد بين الجاحظ أنه لم يلتزم أحياناً بالوحدة الموضوعية لأنه كان مفتوناً بتقديم ثقافة واسعة والأخذ من علم بطرف ولكنه يقرر في الوقت نفسه بأهمية التقيد بالموضوعية فيقول (وأنا أكتب لك من كل باب طرفاً لأن إخراجك من باب إلى باب أبقى لنشاطك . ولو كتبته كله لكان أكمل وأنبل ولكن أخاف التطويل وأنت جدير أن تعرف بالجملة التفصيل والآخر بالأول)[3] .

---

(١) الجمحي، ابن سلام، طبقات الشعراء ص ٤
(٢) شرح مقامات السيوطي ٢/ ١٠٠٥
(٣) الجاحظ، الحيوان ج٧ ص ١٦٢

٥ . ٣ الشكل والمضمون

بحث النقاد وعلماء البيان في أثر الألفاظ والمعاني في النظم والتأليف بحثاً مستفيضاً لإبراز قيمة كل منهما ، فكانت الدعوة صريحة إلى الاهتمام بالإطار والمحتوى معاً فقالوا (إن ارتباط المعنى باللفظ كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان ذلك نقصاً . . . فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتاً لا فائدة فيه . . . وإذا اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأننا لا نجد روحاً في غير جسم ألبته)[١] . وتجسد هذا الإتجاه مقولة الجاحظ (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ . . وإنما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير) أي العناية بجمال الألفاظ وحسن رصفها وصوغها وانتقائها .

هذا فإن الكاتب ذا الموهبة الفذة قد يعجله الحافز الملح عن تعهد تأليفه وإجادته فيأتي بالركيك ، فجريرة السرعة تنال من جودة الإبداع الذي يحتاج إلى الروية والتأمل والإناه والصبر حتى تتجلى بنفسها الصناعة الفنية الرائعة في المباني والمعاني

وقد شاعت في هذه البيئة العلمية العربية الخصبة قيم عديدة ومبادئ أصيلة كانت نبراساً للعمل العلمي المتميز ، وقبساً ساطعاً لأرباب الفكر فها هو الجاحظ يغرس في ضمير المؤلف مسئوليات كبيرة ، بل يحيطه بمشاعر مخيفة ومنذرة حتى لا يتهاون في التأليف والنظم الجيد (الناس كلهم أعداء ، كلهم عالم ، كلهم متفرغ له) ثم يخذره بان يأخذه الغرور من إعادة النظر وإجادة العمل فيقول (وينبغي لمن يكتب ألا يكتب إلاَّ على أن الناس كلهم

(١) ابن رشيق ، العمدة ١/ ٨٠

له أعداء وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير فان لابتاء الكتاب فتنه وعُجباً فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طعمه في السلامة انقص من وزن خوفه من العيب)، ولذا يذهب إلى أنه ينبغي على المؤلف أن يشك فيما يكتب وان ينقده بنفسه ويقف من كتابه وشعره موقف الخصم ويضاعف في الشك والتهمة وإعادة النظر . قال الجاحظ (واحتياج العاقل في العجب بولده وفي استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي ومن إعادة النظر والتهمة إلى إضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك) .

وهناك مقولات عديدة مبثوثة في كتب التراث تدعو إلى انتهاج النقد الموضوعي والنظرة الكلية الفاحصة للعمل العلمي أو الأدبي دون تتبع الجزئيات وتصيد العيوب ذلك أن (كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع الكتب على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه أو ناله بعض اضطراب أو كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم وفلتات الضجر ومن خطأ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لو تدبره بعقل غير مُفْسَد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوارض الحسد ومن عادة التسرع) .

ولعل هذه النظرات المنهجية في التراث تتجلى في المطالبة بإخضاع الروايات والنصوص إلى جملة من الأسس والقواعد منها :

١ ـ إنكار ما تناقض واستحال .

٢ ـ إنكار ما امتنع في الطبيعة وخرج من طاقة الحلقة .

٣ ـ التثبت : فإذا اجتاز الخبر هذين العنصرين وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك (التثبت) .

٤ـ البحث عن الحقيقة العلمية (الحق والصدق)، وان يكون (الحق) في

ذلك هو ضالتك و(الصدق) هو بغيتك كائناً ما كان . والحقيقة هنا لا علاقة لها بالحب والكره .

٥ ـ اتخاذ الرفض أساساً في البحث، ولذا قال الجاحظ (بئس عادة الإقرار والقبول)[١].

يقول ابن عبد ربه (وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصون البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختبار، وحسن الاختيار . . واختيار الكلام أصعب من تأليفه) . وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله . وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ   كان دليلاً على اللبيب اختياره

وفي يتيمة الدهر للثعالبي شذرات رائعة حول تجارب علمية خضبه عن شئون التأليف وعن شئون المؤلفين إذ ليس هناك من مؤلف إلا ويحتاج للإجادة والإتقان وإلى طول المراجعة والتدقيق والتصحيح والتغيير يقول الثعالبي (تبنيت مصداق ما قرأته في بعض الكتب : أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم انه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا احب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة ؟) فلنتأمل تلك الحالة النفسية العصيبة التي يمر بها المؤلف من الاضطراب والتوتر والقلق في سبيل إعادة النظر والتفكير في إحراز الإجادة والبراعة والإبداع . يصورها الثعالبي أصدق تصوير من معاناته (أبنيه، وأنقضه، أزيده وأنقصه، أمحوه، أثبته، أنتسخه ثم انسخه . . .) فها هو نصه (إن كان لهذا الكتاب محل من نفوس الأدباء، وموقع من قلوب الفضلاء، كالعادة فيما لم يقرع من قبل آذانهم، ولم يصافح أذهانهم، فلم لا ابلغ به المبلغ الذي يستحق حسن الاحماد، ويستوجب من الاعتداد أوفر الأعداد ؟ ولم

(١) انظر الجاحظ، الحيوان ٣/ ٢٣٨

لا ابسط فيه عنان الكلام، وأرمي في الإشباع والإتمام هدف المرام ؟ فجعلت أبنيه وانقضه، وأزيده وانقصه، وأمحوه وأثبته، وأنتسخه ثم انسخه، وربما أفتتحه ولا أختتمه، وأنتصفه فلا استتمه، والأيام تحجز، وتعد ولا تنجز، إلى أن أدركت عصر السن والحنكة)[1] .

كما كان من خصائص التأليف عندهم نبذ الخرافات، والتهويلات والتوسع في نسج القصص المثيرة في المصنفات وهذه سمه منتشرة تعاني منها حركة التأليف والنشر في زماننا لمخاطبة العامة والدهماء وتسويق البضاعة الضحلة الكاسدة، فيصور الجاحظ بأسلوبه الساخر هذا التوجه المريض الذي ينعت تلك الثقافة الهزيلة المعتله في المجتمع (وزعم بعض أصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسه فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل) وان الجاحظ مع ذكره أخبارهم كان يندد بهم ويسخر منهم ويضحك منهم ويضحك عليهم هو أيضاً . ولذا يقول في معرض ذكر هذه القصة الأخيرة معلقاً : (قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حواءها . قال أبو عبيده لكيسان : أو لم تعلم أنت أن لكل جنس من الحيوان آدم وحواء ؟ وضحك فضحك القوم) .

وقد سبقوا إلى الإشارة إلى هناك من يرتادون ميادين الطرف والغرائب وترويج الخرافات، وهم أولئك الذين يرتفعون قليلا فوق العامة ويقفون أبداً دون العلماء الذين يستحقون حمل هذا الاسم (وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتغرهم كثرة اتباعهم ممن نجده مستهتراً

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ص ٢٧

بسماع الغريب، ومغرماً بالطرائف والبدائع ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيباً من التثبت، وحظاً من التوقي لسلمت الكتب من كثير من الفساد) .

لذا فان اعمال الذهن والتحقيق العلمي من سمات أهل العلم، أما العامة فليس لديها وسائل التثبت والشك فيما بين يديها، لان ملكة النقد هي التي تفطن إلى مواطن القصور أو الإبداع، فتتجاوز حدود القبول والرفض إلى المناقشة والطرح العلمي البناء الذي يتنزه عن التعصب (الرضا) أو (الكره) ذلك أن فضاء النقد وينتج كل مقومات النضج والابتكار والثراء الثقافي والعلمي .

وكان الجاحظ يتهم العامة أنها لا تستعمل الشك فيما بين يديها فأما لا وأما نعم وأما عدا ذلك فمتروك . قال : (وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً واضربوا عنه صفحاً فليس إلا « لا » أو « نعم » إلا أن قولهم « لا » موصول منهم بالغضب وقولهم « نعم » موصول منهم بالرضا وقد عزلت الحرية جانباً . ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن) .

وتتجلى أيضاً الريادة المبكرة في مضمار التأليف من تلك الأسس التي يقوم عليها الأداء في الترجمة علماً وممارسة وإجادة، ذلك أن الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها . . . وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؟!! .

٥ . ٤ الإسـناد

الإسناد سمه علمية بارزة من سمات العلوم العربية الإسلامية وتقليد من تقاليد الرواية، اختصت به هذه الأمة .

يقول ابن كثير (ليس أمة من الأمم يمكنها أن تسند عن نبيها إسناداً متصلاً غير هذه الأمة)[١] . ذلك أن الإسناد أساس قوي لضمان توثيق آثار السنة وحمايتها من العبث والتزييف، قال ابن المبارك (الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء) .

ويقول القاضي الجرجاني (أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمسّ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر، فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أنَّ المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية، ولا طريق للرواية إلا السماع، وملاك الرواية الحفظ، وقد كانت العرب تروي، وتحفظ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض)[٢] .

وحينما دون الحديث في مطلع القرن الثاني للهجرة لم يقتصر التدوين على نصوص الأحاديث أو متونها وإنما كان النص يسبق دائماً بسلسلة الإسناد التي تتحمل مسؤولية الكلمة، وكانت سلاسل الإسناد هي المظاهر الأولى لأمانة الأداء وتوثيق النصوص ولما يعرف بحقوق التأليف . ولهذا لم يكن مصادفة أن تقوم بعض كتب الحديث على هذه الأسانيد وان تتخذ منها أساساً لها كمسند الإمام أحمد ومسند الدارمي .

ولم يكن اهتماما المسلمين بالأسانيد مقصوراً على كتب الحديث، وإنما تجاوزها إلى كتب المغازي والسير والأخبار والتاريخ والأدب .

---

(١) ابن كثير، اختصار علوم الحديث ص ٥٦

(٢) الجرجاني، الوساطة ص ١٥

فكل موضوع في سيرة ابن هشام يبدأ بعبارة « قال ابن إسحاق » وبعد أن ينتهي كلامه يبدأ ابن هشام حديثه بقوله « قال ابن هشام » .

ولا شك أن اتصال الإسناد بسماع كل راو من الذي قبله ثم يتسلسل حتى ينتهي الأمر إلى رسول الله ﷺ بصورة متشابكة الحلقات . . يعد ذلك من عظيم النعم .

يقول ابن المظفر (إن الله تعالى أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد فليس لأحد من الأمم قديمها وحديثها إسناد موصول إنما هي صحف في أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها من غير الثقات . أما هذه الأمة الشريفة زادها الله شرفاً بنبيها ، فإنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ والأضبط فالأضبط والأطول مجالسة لمن هو فوقه ممن كان أقصر ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها فأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً، فنستودع الله شكر هذه النعمة وغيرها من النعم)(١) .

وقد أجمع أئمة الحديث على أنه يشترط فيمن يحتج بروايته شرطان أساسيان هما :

أولاً : العدالة ويعنون بها أن يكون الراوي مسلماً بالغاً عاقلاً سليماً من أسباب الفسق ، سليماً من خوارم المروءة .

ثانياً : الضبط ويعنون به أن يكون الراوي غير سيئ الحفظ ولا فاحش الغلط ولا مخالفاً للثقات ولا كثير الأوهام ولا مغفلاً .

---

(١) السخاوي ، فتح المغيث ٣/ ٣

وقالوا في وصف التوثيق ((فلان إليه المنتهى في التثبت، اتفقوا على توثيقه، أحد الإثبات في الرواية، حجة، ثقة، ثبت مأمون، صدوق، قوي، هو إلى الصدق أقرب إلا أن فيه بعض الضعف، حسن الحديث، يكتب حديثه، ثقة إلا أنه اختلط في آخر عمره، أدركته غفلة الصالحين.

أو يقولون في المجروح : هالك، لا تحل الرواية عنه، كذاب، منكر الحديث، متروك الحديث، ليس بذاك، ليس بثقة، ليس بشيء، ضعيف . . . الخ) .

وهذا الاهتمام النابع من غيرة على الدين حتى لا يشوب أحاديث الرسول ﷺ شائبة كان مبعثه أيضاً موجة الوضع ونشاط الوضاعين الذي أذكته الخلافات المذهبية والطائفية التي شهدتها الساحة الفكرية والعلمية، ومن طريف ما ذكر في الوضع والخيانة العلمية أن المختار الثقفي قال لرجل من الأنصار : (ضع لي حديثاً عن النبي ﷺ : أني كائن بعده خليفة، وطالب له ثأر ولده، وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخادم، فرفض الأنصاري وعرض عليه أن يضعه عن صحابي بأجر أقل) .

وربما شجع الخليفة على الوضع، فقد ذكر (أن دغفلاً النسّابة دخل على معاوية، فقال له : من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس، فقال صفهما لي. فقال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة، حسن الوجه في جبينه نور النبوة، وعز الملك، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد الغاب، قال : فصف أمية، قال : رأيته شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان . فقال معاوية : مه ذاك ابنه أبو عمرو، فقال دغفل هذا شيء قلتموه بعد، وأحدثتموه وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به).

من المقولات الصائبة في هذا الباب قول بعض الرواة (وما آفة الأخبار إلا رواتها)

نظرنا بأمر الحاضرين فرابنا فكيف بأمر الغابرين نصدق

ومن الغرابة في هذا العصر أننا نشاهد الحدث ونعايش ثم نسمع الأخبار تكذب فأنَّى غرابة في أن ينحرف راوٍ من أولئك الوضاعين فينتحل الأخبار والأشعار .

ونتيجة للاهتمام بالإسناد، والوعي بالتزام تقاليد الرواية، بدأ العلماء يستخدمون في نقدهم للنصوص ما يطلق عليه اليوم « النقد الخارجي» فيقبلون النص، أو يرفضونه على ضوء ما عرف به الراوية له من عدالة، أو ما رمي به من التجريح .

وقد فطنوا إلى أهمية الأخذ بأسلوب المقارنة اعتناء منهم بمعرفة ضبط الرواية والتيقن من ملكة الحفظ لدى الراوي . يتحدث عن هذه الحقيقة الهامة أيوب السختياني فيقول (إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك فجالس غيره)[1] . ويقول ابن المبارك إذا أردت أن يصح لك الحديث فاضرب بعضه ببعض أي قارن بين الروايات .

كما استطاعوا أن يحددوا آفات الحفظ والضبط من خلال مصطلحاتهم في الجرح والتعديل: النسيان، والسهو، والغلط، والوهم، والغفلة .

وقد اشترطوا للراوي شرط العدل . مما يحتاج إلى تعقب الراوي بكل دقة وتقصي أحواله لما يترتب من هذه المسألة من نتائج ومصالح تعم الأمة كلها .

---

(١) الدارمي ، سنن الدارمي ج١ ص١٥٣

فهذا هو الحسن بن صالح من علماء القرن الثاني الهجري يتحدث عن طريقتهم في نقد أحوال الرواة والبحث عن حقيقتهم فيقول (إذا أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه حتى يقال لنا أتريدون أن تزوِّجوه ؟)[1] .

والرواية العلمية (التي تقوم على الحفظ والنقل والإنشاء كالرواية المجردة في دورها الأول وأضيف إليها الضبط والإتقان والتحقيق والتمحيص والشرح والتفسير وشيء من الإسناد)[2]، وقد اضطلع بهذا العمل أولئك العلماء المشهورون أمثال أبي عمرو بن العلاء وحمّاد الرواية وخلف الأحمر والمفضّل والأصمعي وأبي عبيده وغيرهم .

وقد تخفف بعضهم من أهل العلم من سلسلة الإسناد لدواعي الاختصار وربما كانت هناك حقائق وأقوال متواترة، الإذعان لها وقبولها أصوب .

وروى الأصمعي خبراً فسئل عن إسناده . فقال : هو من الآيات المحكمات التي لا تحتاج إلى دليل وحجة . وحدث الحسن البصري بحديث فقيل له : يا أبا سعيد عمن ؟ قال . وما تصنع بعمن يا ابن أخي ؟ أما أنت فنالتك موعظته وقامت عليك حجته .

٥ .٤ .١ استكمال أدوات التأليف

هناك معايير عديدة في التراث العربي هي الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي اليوم، فقد تناول العلموي في جهوده المؤصلة للكتابة والتأليف عدة مسائل تتصل بالضبط وطرق التأليف والتصنيف فذكر أنه لا

---

(١) الخطيب، الكفاية، ص ١٥٥

(٢) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ،الاسد، د. ناصر الدين ،ص١٩٠

يجوز لأحد أن يُصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه، فان كان مغلوطاً أو ملحوناً فليصلحه . غاية ما في الباب إن لم يكن خطه مناسباً (خط المصلح) فليأمر من يكتب ذلك بخط حسن .

ولا يعيره غيره . ولا يودعه لغير ضرورة حيث يجوز شرعاً . ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه، فان كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معيّن فلا باس بالنسخ منه مع الاحتياط .

وقال أيضاً (كرهوا في الكتابة فصل مضاف اسم الله تعالى منه كعبد الله أو عبد الرحمن أو رسول الله، فلا يكتب عبد أو رسول آخر السطر والله أو الرحمن أو رسول أول السطر الآخر بقبح صورة الكتابة .

تلك ومضات مبكرة حول إخراج الكتاب بصورة فنية رائعة تكاد تخطئ في ذلك الفنيات الحديثة والمخرجون لإخراج الكتب .

ويردد ابن جماعة توجيهه للناسخ أن يكتب « قال الشيخ » أو « قال المصنف « بل أنه يطالبه بالطهارة ليستشعر المرؤ مهابة الحرفة وعظم المسئولية فيقول (إذا نسخ شيئاً من كتب العلم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة، مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب والحبر والورق . ويبتدئ كل كتاب بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » وان كان مصنفه تركها كتابه فليكتبها هو . ثم ليكتب : قال الشيخ، أو قال المصنف، ثم يشرع في كتابة ما صنفه المصنف . وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء فليختم الكتابة بالحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ . وليختم بقوله : آخر الجزء الأول أو الثاني مثلا ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب . فان أكمله فليقل ثم الكتاب الفلاني، ففي ذلك فوائد كثيرة . وكلما كتب اسم الله تعالى اتبعه بالتعظيم

مثل : تعالى، أو سبحانه، أو عزَّ وجلَّ، أو تقدس، أو تبارك، ويتلفظ بذلك . وكلما كتب اسم النبي ﷺ كتب بعده الصلاة عليه والسلام .

٥ . ٥ التمرس والخبرة

فابن الأثير وهو صاحب البراعة في الكتابة والتأليف يميط اللثام عن هذه الأدوات فيقول (يجب على المبتدئ في هذا الفن والمترشح له إذا أتاه الله عز وجل طبعاً مجيباً، وقريحة مواتية أن يأخذ رسالة من الرسائل أو قصيدة من الشعر، يقف على معانيها، بتدبر أوائلها وأواخرها، ويقرر ذلك في قلبه، ثم يكلف نفسه عمل مثلها مما هو في معناها، ويأخذ تلك الألفاظ التي منها، ويقيم عوض كل لفظة من عنده تسد مسدها، وتؤدي المعنى المدرج تحتها، ولا يزال كذلك حتى يأتي على آخرها، ثم بعد فراغه منها يشتغل بتنقيح ألفاظها وتجويدها وارتباط بعضها ببعض، فإذا استتم عمله انتقل منه إلى غيره وفعل منه فعله أولاً، ولا يزال على هذه القدم حتى يدمن في معارضة الرسائل وان كان كاتباً، أو في معارضة القصائد إن كان شاعراً حتى يحصل له بذلك التدربة الوافرة وتتمرن قريحته عليه، أو يعتاد خاطره هذا الأمر إعتياداً زائداً)[1] .

ومع ان العرب الأوائل لم يعرفوا الطريقة الحديثة لإشارات المرجعية إلا أنهم كانوا يحرصون على ردّ كل قول إلى قائله . وقد ورد في الأثر : (بركة العلم عزوه إلى قائله) . ومن يرجع إلى فهرست ابن النديم (وقد مضى على تأليفه أكثر من ألف عام) يجده ينص على ما ينقله من كتابات الآخرين وكثيراً ما تطالعنا فيه عبارات مثل : « قرأت بخط فلان» و « وجدت بخط فلان » . ومنذ وقت مبكر يستهل ابن سلام كتابه « طبقات فحول

---

(١) ابن الاثير ، الجامع الكبير، المجمع العلمي العراقي، ص ٢٦

الشعراء » بالحديث عن ظاهرة الانتحال في الشعر لينبهنا إلى ضرورة الحذر في تقبل نسبته إلى قائليه لان بعض هذا الشعر قد نسب إلى غير أصحابه الحقيقيين، وساعدت على ذلك الرواية الشفوية لأن العرب لم يدونوا أشعارهم إلا في أواخر العصر الأموي[١] .

إنه مما ينبغي ملاحظته في هذا الصدد أن الطريقة التي عليها المؤلفون والباحثون اليوم من ذكر المجلد والصفحة تقوم على وجود نسخ عديدة من المرجع بفضل انتشار الطباعة، بيد أنه لم يكن لدى علمائنا وسيلة للإشارة إلى نصوص سبق ذكرها أو إلى صفحات سابقة أو استخدام إشارات مختصرة للمراجع، فكانوا ينقلون النص كاملاً أو بشكل مختصر .

(ولذا كان يشعر أحدهم بأنها الوسيلة الوحيدة ليقي نفسه من سهام المنتقدين أن يذكر المصدر الذي أخذ عنه بكل دقة وأمانة . وبهذه الأمانة العلمية استطاع السيوطي (ت ١٥٠٥) أن يقول بكل إريتاح أنه ليس في جميع مؤلفاته الكثيرة خبر أو رواية أو رأي لم يدعمه بالاستشهاد)[٢] . لذا شاعت لديهم استعمال عبارة « والله أعلم »، يقول صاحب الفهرست نقلاً عن كعب (أن آدم كان أول من وضع الخط، وكان يستعمل آجرّات من طين مشوي للكتابة عليها) . وفي آخر الخبر يقول صاحب الفهرست : (وقال كعب . . . . وإني أبرأ إلى الله من قوله)[٣] .

---

(١) عبد الستار الحلوجي، ج٢ ص ٦٤٦

(٢) السيوطي، المزهر، الجزء الثاني ص ١٦٥

(٣) ابن النديم، الفهرست ص ٤

٥ .٦. الإيداع (التخليد)

فقد عرف المسلمون، كما قلنا، نظاماً يشبه الإيداع القانوني واسموه التخليد . فقد ازدهرت مكتبة دار العلم التي بناها ببغداد سنة ٣٨٢ هـ الوزير البويهي سابور بن اردشير ازدهاراً رائعاً وطار صيتها في الآفاق وارتفعت سمعتها حتى قصدها الادباء والعلماء والشعراء من كل مكان وضربوا إليها أباط الابل ويعتبر أبو العلاء المعري الشاعر المشهور أشهر من قصد بغداد بخاصة لزيارة دار العلم هذه والتعرف على محتوياتها وعلى الأدباء والعلماء الذين كانوا يرتادونها ويرد ذكرها في مؤلفاته . وقد كان يسر المؤلف، أي مؤلف، أن تقبل هذه الدار نسخة من كتابه كهدية وهذا هو ما نسميه نحن بالإيداع وكانوا يسمونه التخليد

يذكر ياقوت أثناء حديثه عن أحمد بن علي بن خيران الكاتب أنه . . (سلم إلى أبي منصور بن الشيرازى رسول ابن النجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما إلى الشريف المرتضى أبي القاسم (المشرف على دار العلم في بغداد آنذاك) وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ويستشير في تخليدها دار العلم، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنقذه منها قد ارتضى واستجيد)[1] .

(١) ارشاد الاديب إلى معرفة الاديب ج٢/ ٥ ـ ٦، دار المأمون القاهرة

الخاتمــة

حاولت في هذه الدراسة ـ التي اتبعت فيها أبرز ملامح ثمرات التراث العربي الاسلامي وتذوقها وقراءتها قراءة موضوعية مشفوعة بالتعليل والتحليل ـ أن أرصد سمات الإبداع وتقديره والزهو به عند العرب، مما افضى إلى نظرات عمومية ثم إلى نظريات ومناهج فكرية علمية رائدة وتقاليد تراثية أصيلة في العصور الإسلامية المختلفة مما اتاح لي الوقوف على جملة من الحقائق من أهمها.

النتائج

أولاً: كان هناك عند العرب منذ الجاهلية تقدير كبير للإبداع والاحتفاء بصاحبه وتكريمه ورعاية مبكرة لشؤون الأدب والشعر والإبداع صقلاً وحفظاً، وقد برز في تلك الفترة الجاهلية مبدأ التحكيم إذ كانت تعرض القصائد على ذوي الخبرة والدربة.

ثانياً: تناول العلماء قضية الملكية الفكرية منذ ظهور بوادرها وعالجوها في مصنفاتهم.

ثالثاً: تشعبت وسائل مواجهة ظاهرة السرقات في التراث إلى عدة محاور منهجية مهمة:

١ـ ترسيخ قيم ثابتة وأصول مقررة للروايات والأحاديث والنقول كالسند والتوثيق والأمانة العلمية ونقد الرجال.

٢ـ التصدي لأي اعتداء على مصنف أو أفكار بالكشف والتعريف بالسارق والمسروق والتشهير به للردع.

٣ـ العناية بالعمل العلمي ذاته شكلاً ومضموناً واشتراط أن يكون المؤلف متخصصاً ومحرزاً كافة أدواته من التمرس والخبرة . . . مما من شأنه أن يصونه من أي تجاوزات أو اعتداءات .

رابعاً : سبق علماء المسلمين إلى الضوابط الفنية المرعية في التأليف كالاقتباس ودقة النقل وذكر المصادر .

خامساً : عرف المسلمون نظام (التخليد) في العصر العباسي وهو أشبه ما يكون بنظام الإبداع المعمول به اليوم حماية للملكية الفكرية .

التوصيات

أولاً : توجيه العناية إلى نشر المصنفات التراثية حول قضية حقوق الملكية الفكرية وتحقيقها .

ثانياً : دراسة التراث دراسة واعية عميقة للوقوف على الآراء العلمية المبثوثة فيه حول قضية الملكية الفكرية .

ثالثاً : تأصيل منهج البحث العلمي العربي الإسلامي تأصيلاً شاملاً ، وعرضه وتدريسه ضمن المناهج العلمية الحديثة .

رابعاً : اعادة قراءة التراث قراءة استكشاف وتحليل وتمثل للتزود المتصل من ينابيعه .

خامساً : البحث عن نتاج الحضارة الإسلامية الزاخر لإثراء الموضوعات والقضايا العلمية الحديثة بالنظم والتشريعات التي توصلوا إليها قديماً لحماية حقوق الملكية الفكرية

المراجع

المراجــع

ابن الأثير ، الجامع ، ت : مصطفى حواد ، وجميل سعيد ، مطبعة المجتمع العلمي العراقي ، بغداد ١٣٧٥ هـ

ابن الأثير ، المثل الساتر ، ت : أحمد الحوفي وبدوي طبانه ، الرياض ، دار الرفاعي .

ابن النديم ، أبو الفرج ، الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة .

ابن خلدون ، المقدمة ، المكتبة التجارية .

ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥ .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ت : محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة ١٩٤٠ .

ابن كثير ، اختصار علوم الحديث .

الآمدي ، الموازنه ، ت : السيد أحمد صقر ، القاهرة , دار المعارف ١٩٦٣ .

الجاحظ ، الحيوان ت : عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الحلبي .

الجرجاني ، القاضي علي بن عبد العزيز ، الوساطة ت : محمد أبو الفضل وعلي البجاوي ، دار القلم ، بيروت ١٣٨٦ هـ .

الجمحي ، ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ت : محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٧٤ .

الحلوجي ، عبد الستار ، عالم الكتب ، العدد الرابع .

الحموي ، ابو عبد الله ياقوت ، معجم الأدباء ١٩٣٨ .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ .

خليفة، حاجي، كشف الظنون ١٩٤٧ .
السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .
السد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية .
السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ت : محمد أحمد جاد المولى ومحمد الفضل ابراهيم وعلي البجاوي، دار التراث، القاهرة .
الشوكاني، البدر الساطع، القاهرة ١٣٥٤ هـ .
الطبري، علي سهل، فردوس الحكمة ١٩٢٨ برلين .
العسقلاني، ابن حجر، لسان الميزان، بيروت، دار الفكر ١٤٠٨هـ.
العسكري، أبو هلال، الصناعتين، الكتابة والشعر ت : د . مفيد مميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١ .
المرزباني، ابو عبد الله محمد، الموشح، مآخذ العلماء على الشعراء ت : علي البجاوي، دار النهضة، مصر ١٩٦٥ .
المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ط باريس .
المعرى، رسالة الغفران، ط الكيلاني .
الهيثمي، مجمع الزوائد .